كشف أسرار المعاني
عند عبد القاهر الجرجاني

تأليف

محمد حامد محمد

كشف أسرار المعاني
عند عبد القاهر الجرجاني

تأليف
محمد حامد محمد

مقدمة

تباركَ الَّذِى نزَّل الفُرْقَانَ علي عَبْدِه لِيكونَ للعالمينَ نَذِيرا، والحمدُ لله الذى هدانا به وأخْرجَنا من الظلُماتِ إلى النُّورِ، وصلَّى الله على نبينا محمّد الذى نَزَلَ القرآنُ العظيمُ بلسانِه لِسانا عربيًّا مُبيناً، لا يأتِيه الباطِلُ من بَيْن يَدَيه ولا من خَلْفه، اللهمَّ صَلِّ على محمّدٍ وعلى أبَوَيْه إبرهيمَ وإسماعيلَ وسلِّم تسليما كثيراً. اللهمَّ اغْفِرْ لنا وارحَمنا وأنتَ خيرُ الراحمين.

فهذه وريقات كتبتها منذ إحدى وعشرين عاماً كورقة بحث مقدمة إلى قسم اللغة العربية بكلية التربية بكفرالشيخ ، تحت إشراف أستاذي ، الأستاذ الدكتور أحمد عبد السيد الصاوي أستاذ النقد والأدب ، وأستاذي الأستاذ مصطفى علي عمر أستاذ النقد التحليلي ، وأستاذي وأستاذ أساتيذي الدكتور عبدة عبد العزيز قليقلة ، رحم الله منهم الأموات ، وأطال عمر الأحياء منهم على طاعته .

ثم في ١٩٩٩ بيضتُ البحث ، ورتبته مع بعض الزيادات ، وحسن التقسيم ، ثم تناسيته ، وضاع في أدراج مكتبتي ... حتى عثرتُ عليه الآن في عام ٢٠١١ فتذكرت تلك الأيام ، وترحمت على الأساتذة ، ودعوت لزملائي ، وشدني الحنين إلى البحث مرة أخرى ، فأخذته وانتويتُ العمل عليه ، وتجهيزه للطباعة عسى أن يرى النور في عالم المطبوعات ، وما ذلك على الله ببعيد .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

القاهرة

في العاشر من المحرم لعام ١٤٣٣هـ

❒❒❒

عبد القاهر الجرجاني في سيرته الذاتية والعلمية

هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، نسبة إلى جرجان، المدينة الفارسية العريقة التي تقع بين طبرستان وخراسان. ينتسب إليها عدد وافر من رجال العلم والأدب والفقه والحديث، عدَّ منهم عمر رضا كحالة خمسة وثلاثين، منهم الفقيه والقاضي والشاعر المحدِّث والمؤرخ .. وتمتاز هذه المدينة بشدة بردها وحرِّها، لكن أهلها موصوفون بالوقار والمروءة واليسار والتأني والأخلاق المحمودة. وصفها ياقوت فقال:

هي مدينة حسنة على واد عظيم في ثغور بلدان السهل والجبل والبر والبحر، بها الزيتون والنخل والجوز والرمان وقصب السكر و "الأترجُّ".

ومع ذلك فقد ذمَّها الصاحب ابن عبَّاد قائلاً:

نحنُ والله من هوائكِ ياجر ... جانُ في خطةٍ وكَرْبٍ شديد
حَرُّها يُنضِجُ الجلودَ فإن هبَّــ ... ــتْ شمالاً تكَّدرتْ برُكودِ
كحبيب منافقٍ كلَّما هــ ... ــمَّ بوصْلٍ أحالَهُ بالصدودِ

لم يذكر المؤرخون شيئاً عن طفولته وأسرته ونشأته، وكثير من أمور حياته، حتى نَسبُهُ توقَّف لديهم، عند جدِّه (محمد). ولم يتوغلوا قيد أنملة فوق ذلك ضاربين صفحاً عن كل ما يمت إلى علَم مثله، من إحاطةٍ ببيئته وأسرته، وتعلُّمه وتنقله، وأساتذته وتلاميذه، وشؤونٍ كثيرة تتعلق به من قريب أو بعيد. ويتلخص ما جاء في مصادر ترجمته أنه: أشعري، شافعي، نحوي، بيانيٌّ متكلِّمٌ فقيه، مفسِّر، شاعر وزاد بعضُهم: "كان .. ذا نُسُكٍ ودين، قال السِّلفي: (أحمد بن محمد السِّلفي، الحافظ المحدّث المتوفى سنة ٥٧٦ هـ/ ١١٨٠م) كان ورعاً قانعاً. دخل عليه لصٌّ وهو يُصلِّي، فأخذ ما وجد، وهو ينظرُ، وهو في الصلاة فما قطعها، وكان آيةً في النحو".

ويعدُ كتاب "دمية القصر وعصْرة أهل العصر" لأبي الحسن علي بن الحسن الباخزري المتوفي سنة ٤٦٧ هـ أقرب ما يكون لعصره وحياته وبيئته .. ومع ذلك لم يزد في ترجمته له على خمس صفحاتٍ، عدد السطور التي خصَّه فيها بتعريف وتكريم: تسعة سطور، والباقي منتخبات من شعره الذي لا يزال مخطوطاً ..

ومما جاء فيه:

"اتَّفقتْ على إمامته الألسنةُ، وتجمَّلتْ بمكانه وزمانه الأمكنة والأزمنة، وأثنى عليه طيبُ العناصر، وثُنيتْ به عقودُ الخناصر، فهو فرْدٌ في علمه الغزير، لا بل هو العلَمُ والفردُ في الأئمة المشاهير".

هذا جلُّ ما جاء في مصادر ترجمته، ومعظمها يقتفي أثر الآخر، ولا تكاد تحظى بكلمة واحدة تضيء ظلمة حياته الغابرة.

وأما عن تاريخ مولده، فهو مستنتج استنتاجاً ولم يعيِّنْه أحد إلاَّ على سبيل الترجيح، لكنهم اتفقوا أن وفاته كانت سنة ٤٧١ هـ / ١٠٧٨م وقيل سنة ٤٧٤ هـ. ورُجِّح أن يكون مولده سنة ٤٠٠ هـ / ١٠١٠م.

وفي كتابه: "عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية" يعمد الدكتور أحمد بدوي، إلى شعره لاستخلاص بعض مزاياه وخصالة ونضاله، ولولا هذا الشعر، لكانت حياة الجرجاني، غائبة كلِّياً عن قارئ اليوم الذي تعوَّد أن يطَّلع على سير أعلامه بوفرة ويُسْر، ولكن الأيام لها تصاريفها، فتُعتم على بعض النوابغ الأفذاذ، وتفيض بما لا حصر له على كثير من رجال السلطان والنفوذ، وقليلٍ من العظماء الذي تحدُّوا التاريخ فحفروا سيرهم على صفحاته حَفْراً لم تستطعْ قوى الظلام طمسها أو تشويهها .. هذا الكتاب الذي يبلغ ٤٢٨ صفحة من الحجم الوسط لم نقرأ فيه شيئاً عن حياة الجرجاني، فيما خلا الإشارات الخاطفة التي لخصها كتَّاب التراجم، والومضات الشعرية التي عكست أصداءً غير مدوية لواقعه النفسي .. حتى أساتذته، لم يزيدوا على اثنين لقيهما أبو بكر وأخذ عنهما، الأول: أبو الحسين محمد بن الحسن بن عبد الوارث الفارسي النحوي، ابن أخت العالم الشهير أبي علي الفارسي .. والثاني أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني، المعروف بالقاضي الجرجاني المتوفى سنة ٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م، الأمر الذي يدعو إلى الغرابة، في إمكان لقاء أبي بكر به والتمكن من الأخذ عنه؛ وهو الذي لم يعرف عنه الحياة الطويلة .. والأرجح أن يكون عبد القاهر قد اطَّلع عن كَثَب على كتابه "الوساطة بين المتنبي وخصومه" وفيه يُغلِّب القاضي دَفَّةَ المتنبي على أبي تمام وغيره من الشعراء والمنتقدين، فلقي ذلك هوىً في نفسه لأنه من هذا الفريق. أما تلاميذه فالحديث عنهم لا يروي غليلاً، إذ ذكر له تلميذان فقط، هما علي بن زيد الفصيحي، وأبو نصر أحمد بن محمد الشجري، الذي أخذ عنه كتاب المقتصد" في النحْو.

ومن الثابت أن عبد القاهر لم يغادر جرجان إلى بلد آخر، من المهد إلى اللحد، وكان الطلاب والوافدون إليه، يقصدونه من بلاد بعيدة ويقيمون بقربه للاستمتاع إليه والأخذ عنه.

وأما خصاله وطبائعه النفسية، فلم يُشر أحد إليها إلاَّ عرضاً وبكلمات خاطفة، كقول تاج الدين السّبْكي: "صار الإمامَ المشهور المقصود من جميع الجهات مع الدين المتين والورَع والسُّكون".

وقد عرضَ الدكتور أحمد بدوي لبعض ما تراءى له من شعره الذي رسم شيئاً من أحواله وعلاقاته ومواقفه غير المعلنة، وألخصها بما يلي:

* سخطه على عصره وعلى الأيام التي تضع من قدر العلماء وترفع من شأن الجهلاء من خلال قولته الشعرية الصادمة:

كبِّرْ على العِلْم، لا تَرْمْهُ ... ومِلْ إلى الجَهْل مَيْلَ هائمْ

وعشْ حماراً تعشْ سعيداً ... فالسعد في طالع البهائم

أو قوله، على سخطٍ وأَنفةٍ مؤلمة:

هذا زمانٌ ليس فيه ... سوى النَّذالةِ والجَهالَهْ

لم يَرْق فيه صاعِدٌ ... إلاَّ وسُلَّمه النذالة

بَرَمُه بالناس وبنفسه وشعور بما يشبه حبسة اللسان. ولم يتوافق ذلك مع ورعه وسكونيَّته وطولِ باعه في الكلام المرسل المحكم المتدفق ..

* صمت المؤرخين على وضعه الأسروي، زوجةً وولداً، وأمًّا وأباً وأشقَّاء ... والأرجح أن يكون والداً وزوجاً، لكنَّ تفرغه للعلم والدين، ولقاصديه من أهل العلم والمعرفة، شغلَ الناسَ عن أمور أسرته، وحصَرها بجهاده العلمي المنوع بين نحو وتفسير وأدبٍ وشعر وثقافة فكرية متعددة الينابيع ما بين يونانية وفارسية وهندية، فضلاً عن ثقافته العربية القرآنية الواسعة؛ فتنوعت كتاباته ومصنفاته بين نحو وبلاغة وتفسير وفقهٍ وأدب، لذلك وجدنا تراجم له في تراجم الطبقات الشافعية، وطبقات المفسِّرين، وطبقات النحاة، وطبقات الأدباء والبلغاء.

آثاره

لم يترك الجرجاني آثاراً عديدة، ولكنه نوَّع فيما ترك، وذاع صيت بعض آثاره بما يغني عن التعداد والكثرة. وسأعرض لها تباعاً بحسب انتمائها العلمي.

أ – في النحو

١ – المغْني، كتاب كبير وضعَه في ثلاثين مجلَّدة، كناية عن شرح مبسط لكتاب: "الايضاح في النحو" لأبي علي الفارسي المتوفي سنة ٣٧٧هـ/ ٩٨٧م وهو كتاب مقسَّم بين النحو والصرف، أثار من إعجاب الجرجاني أن وضع لأَجله أربعة كتب، أولها "المغني" ...

٢ – "المقتصد" ثلاث مجلدات، أو أقسام، وهو ملخص "للمغني" وقد أتمّه الجرجاني بخط يده في رمضان سنة٤٥٤ هـ.

٣ – "التكملة" أو – التتمَّة، قيل إن الجرجاني قد أضاف إلى كتاب "الإيضاح" بعض المسائل النحوية – وذكره بروكلمان. فقال: "كتاب التتمة، في الجملة" وأشار إلى رقم مخطوطه في كل من المتحف البريطاني والمكتب الهندي.

٤ – "الإيجاز" وهو مختصر لكتاب "الإيضاح". ويذكر حاجي خليفة عدداً كبيراً من الشروح التي عُنيت بكتاب "الإيضاح" تتجاوز العشرات.

٥ – "الجُمل" وسمِّي: الجرجانية"، مختصر لعلم النحو، وضعَه في خمسة فصول، فصَّلها حاجي خليفة كما يلي: ١ – في المقدمات. ٢ – في عوامل الأفعَال. ٣ – في عوامل الحروف. ٤ – في عوامل الأسماء. ٥ – في أشياء منفردة. وذكر له عدداً كبيراً من الشروح لكثير من علماء العصور اللاحقة، وصولاً حتى منتصفِ القرن الثامن الهجري.

وذكر بروكلمان، أنه منظومة نحوية، شُرحت كثيراً، وقد عدَّد شُرُّاحَها وأسماء شروحهم. ٦ – التلخيص" وهو شرح الكتاب "الجمل".

٧ – العوامل المائة في النحو" أو: كتاب العوامل المائة، أو مائة عامل. أقبل عليه القرَّاء والعلماء، فشرحوه وبسَّطوه، علَّقوا عليه وذكر منهم حاجي خليفة، ما بين شارح ومترجم وناظم ومُعْرِب ومعلِّق ومختصِر: اثني عشر عالماً، آخرهم صوفي الأدرنوي المتوفي سنة ١٠٢٤ هـ/.

أما بروكلمان فقد عيَّن ورقَّم له عشرات المخطوطات في عدد كبير من المكتبات العربية والأجنبية، وذكر له ستة وثلاثين شرحاً، وتسع منظومات مخطوطة ومطبوعة.

٨ – "العمدة" في التصريف (أشار إليه "كشف الظنون" دون تعريف).

٩ – كتاب في العروض (أشار إليه "فوات الوفيات" دون تعريف).

ب – في الشرح والتفسير القرآني

١٠ – "كتاب المفتاح وشرح الفاتحة" في مجلد واحد.

١١ – المعتضد، شرح كبير لكتاب "إعجاز القرآن" لأبي عبد الله محمد بن زيد الواسطي المتوفي سنة ٣٠٦ هـ.

١٢ – شرح "الإعجاز" الصغير، ذكره حاجي خليفة كما ذكر شرحه الأول المعتضد.

وهناك شروح أخرى لإعجاز القرآن، قام بها علماء أجلاَّء بينهم فخر الدين الرازي والباقلاَّني.

١٣ – الرسالة الشافية كتاب خاص في (بيان عجز العرب عن معارضة القرآن، وإذعانهم وعلمهم أن الذي سمعوه من آي الذكر الحكيم فائتٌ للقوى البشرية ومتجاوزٌ للذي يتَّسع له ذَرْعُ المخلوقين) هكذا قدَّم لها الجرجاني. وقد نشرت هذه الرسالة مع رسالتين أُخْرَيين، واحدة للرمَّاني، والثانية للخطَّابي، في كتاب واحد، حققه كل من محمد خلف الله ود. محمد زغلول سلام، وصدر عن دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٨ (طبعة ثانية) وعدد صفحات "الرسالة الشافية" تسعون صفحة من الكتاب.

١٤ – درج الدرر، في تفسير القرآن ذكره بروكلمان، وأشار إلى مخطوطين له في كل من الأسكوريال والقاهرة. كما ذكره حاجي خليفة على وجه الظنّ.

ج – في علوم البلاغة

١٥ – دلائل الإعجاز، العلامة الفارقة في نتاج الرجل وعصره، والأثر الأنفس بين كتب ومصنفات البلاغة، من قبل ومن بعد. فهو لم يضع أسس علم ركْنٍ من علوم البلاغة العربية، بل وضع مصطلحاً علمياً فنياً أدبياً، قائماً على نظريةٍ متكاملة لم يزد عليها العلماء من بعد إلاَّ التبسيط والتنوير ... عَنَيتُ مصطلح "النظم" ونظريته ...

١٦ – أسرار البلاغة، العلامة الثانية، والمَعْلَم الثاني في نتاج الرجل والعصر، وهو خاص بعلمي: البيان بخاصة، والبديع بعامة.

وقد صدر الكتاب في غير طبعة، أهمها طبعة المنار، التي أشرف عليها الشيخ رشيد رضا، ونشرتها دار المعرفة مصورة عنها، في بيروت سنة ١٩٧٨.

وكان قد صدر محققاً من المستشرق هـــ. ريتر، ثم أُعيد نشره مصوَّراً، في دار المسيرة طبعة ثالثة بيروت سنة ١٩٨٣. ونَسَقَهُ في الموضوعات والمعالجة والتبويب، شبهٌ بنسقية "دلائل الإعجاز" أي تداخل الموضوعات بعضها ببعض، وتكرار المعالجة للمسألة الواحدة، من زوايا أخرى، والتعويل باستمرار على الشواهد الشعرية التي بلغت في "أسرار البلاغة" نسبةً عالية، كذلك الشواهد القرآنية التي لم تكن بنفس النسبة التي كانت في "دلائل الإعجاز".

١٧ – التذكرة، وهو كتاب منوع الموضوعات، لكنها تتصل بمعظمها بما طرح في كتاب "دلائل الإعجاز" مما لم يستوف القول فيها هناك. ومما يوحي لنا بذلك، أن عبد القاهر الجرجاني لم يَخْتم كتابه "الدلائل" بما بدأ به من حمد الله وامتنانه، وهكذا معظم كتبه.

د – في الشعر

ترك عبد القاهر في هذا الجانب مصنفاً واحداً هو:

١٨ – المختار من دواوين المتنبي والبحتري وأبي تمام: اعتنى بنسخه وتصحيحه ومعارضته بالأصول وشرَحَه: عبد العزيز الميمني، عليكرة – الهند، وصدر ضمن كتاب بعنوان: "الطرائف الأدبية" الذي وضعه الميمني على قسمين، الأول: لدواوين كل من الأَفوه الأودي والشنفرى، وتسع قصائد نادرة، والثاني: للمختارات.

صدر الكتاب عن دار الكتب العلمية في بيروت مصوَّراً عن طبعة صدرت في القاهرة سنة ١٩٣٧؛ وقد وقع الميمني على نسخة من المخطوطة في إحدى قرى الهند في مملكة حيدر آباد .. أخذ الميمني على الجرجاني إغفال قصيدةٍ حكمية للمتنبي – لم يثبتها في المختارات مع أنَّ هذه الأخيرة، قد عدَّها الجرجاني من بين عيون الشعر الحكمي للشعراء الثلاثة – وهذه القصيدة نونيَّة، مطلعها:

صَحِبَ الناسُ قبلنا ذا الزمانا ... وعَناهُم من شأنه ما عنانا

ومما جاء في مقدمة "المختارات".

"هذا اختيارٌ من دواوين المتنبي والبحتري وأبي تمام عمدنا فيه لأشرف أجناس الشعر، وأحقها بأن يُحفظ ويُروى ويوكّل به الهِمَمُ، ويُفَرَّغ له البالُ، وتُصرف إليه العناية، ويقدَّم في الدراية، وتُعْمَر به الصدور، ويستودَعَ القلوب، ويعدَّ للمذاكرة، ويُحصَّل للمحاضرة.

وذلك ما كان مثلاً سائراً، ومعنًى نادراً، وحكمةً وأدباً، وقولاً فضْلاً، ومنطقاً جزلاً .. "

ويقع كتاب "المختارات" من كتاب "الطرائف" في مائة وخمس صفحات، نصيبُ المختار من شعر البحتري، وحده: في حدود النصف، يليه المتنبي فأبو تمام، مع العلم بأن الجرجاني من المعجبين جداً بشعر المتنبي على سائر الشعراء. وتقديري هو أنَّ نسبة الشعر الكبرى – للبحتري – هاهنا، لا تعود إلى عامل آخر، غير كبر حجم ديوان البحتري الذي يقارب الضعفين لديوان المتنبي.

– بقي أثر آخر من آثار الجرجاني – هو شعره، الذي ذكَره بعضُ كتب التراجم،. ولم يُشر أحد إلى عنوانٍ واحد له. والمراجح أنه لم يترك ديواناً مجموعاً على غرار سائر كتبه ومصنفاته، ربما لأنه لم يكن لديه ما يوجب جمعه وحفظه في كتاب مستقل.

وما وصل إلينا من هذا الشعر، يقع بعامة في خانة الشعر الحكمي التعليمي الذي يصلح لنظم القواعد والمعارف المبوَّبة المفرَّعة.

هكذا رأيناه في "هائيته" التي ختم بها "مدخله" إلى كتابه "دلائل الإعجاز" وهي في ثلاثة وعشرين بيتاً، ضمَّها حقيقة "النظم" التي عرضها بإسهاب في كتابه، وربطها كليّاً بمعاني النحو وأحكامه ووجوهه، كقوله:

وقد علمْنا بأنَّ النظْمَ ليس سوى ... حُكْم من النحو نَمْضي في توخِّيهِ

لو نقَّب الأَرْض باغٍ غير ذاكَ لهُ ... معنًى وصعَّدَ يَعْلو في تَرَقِّيه

ما عاد إلاَّ بخُسْرٍ في تطلُّبه ... ولا رأى غير غَيٍّ في تَبَغِّيهِ

ولو تأملنا المقاطع الشعرية التي أثبتها له كتَّابُ التراجم، ولا سيما "دمية القصر" للباخرزي خرجنا بانطباع خاص، أن هذا الشعر، لا يشكل نتاجاً أدبياً قائماً بذاته. إن هو إلاَّ نفثات قصيرة النفس لما يحتدم في داخله، عوضاً من أن يصوغها نثراً في رسائل ومقامات، نظمها شعراً، أحكم فيه العقل وموازنة الأشياء، وغلب عليه التمثُّل بعِبَر الحياة بالقَدْر الذي أتيح له استشفافها واعتصارها، كقوله:

أيُّ وقتٍ هذا الذي نحنُ فيهِ ... قد دَجا بالقياس والتشبيهِ

كلَّما سارتِ العقولُ لكي تَقْـ ... ـطَعَ تيهاً، تغوَّلتْ في تيهِ

وقوله، وقد فاته الابتكار الفكري – على حد وصف الباخرزي لبعض

أشعاره – مستعيضاً عنه بالصَّنعة البديعية التي تمثل الاتجاه الشعري العام لكثير من شعراء عصره، والعصور اللاحقة. والقول هنا، من قصيدة في اليأس من الناس:

ليس بالإقبال ما نِيــ ... ــلَ بتقبيل الكلابِ

إنَّ باغي الربحِ والخُسْــ ... ــرانِ في بابٍ وبابِ

تلكم هي الآثار التي أمكن الوقوفُ عندها، ورصْدُ ما فيها من جوانب علمية وفنية، إنْ فاتني فيها العمق والشمول، فلم تفُتْني الإحاطة ولو بأطرها العريضة.[١]

❐❐❐

[١] من مقدمة كتاب دلائل الإعجاز في علم المعاني تح ياسين الأيوبي .

اللفظ والمعنى قبل عبد القاهر

لم يكن الإمام عبد القاهر الجرجاني هو مُنشأ هذه القضية ، بل سبقه كثيرٌ من علماء العربية ، وأشاروا إلى النظم وصحته أو عدم صحته في كلام ما ، وأرجعوا المزية البلاغية إلى صحته ، لكنهم لم يصرحوا بكيفيته ، ولنستعرض آراء العلماء في ذلك :

- أبو عمر الشيباني ، فقد استحسن بيتين من الشعر ، لِما اشتملا عليه من معنى وحكمة وأولع بهما ولوعاً شديداً ، حتى إنه أمر بتدوينهما و وهما قول الشاعر[1] :

لا تحسبنَّ الموتَ موتَ البِلى ... وإنّمَا الموتُ سُؤالُ الرِّجالْ
كِلاهمَا مَوتٌ، ولكنَّ ذَا ... أشدُّ مِنْ ذاكَ لِذُلِّ السُّؤالْ

وقد عاب الجاحظ على أبي عمرو الشيباني استحسانه لهذين البيتين بقوله : "وذهب الشّيخ إلى استحسان المعنى، والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجميّ والعربيّ، والبدويّ والقروي، والمدنيّ. وإنّما الشأن في إقامة الوزن، وتخيّر اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحّة الطبع وجودة السّبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النّسج، وجنس من التّصوير."اهــ[2]

ونحن نرى الجاحظ وكأنه يتعجب من استحسان أبي عمرو الشيباني للمعنى والمناصرة له مع العلم بأن المعاني مطروحة في الطريق يعرفها من ليس له أي علم أو دراية بفن العربية من أمثال البدوي والعجمي ، والجاحظ هنا لا يظنه أحدٌ بأنه لفظي ، لا بل هو أيضاً يقدر المعنى ويعترف به ، وقد نوّه عليه في مواضع كثيرة من كتبه ، فهو يقول " ومدار الأمر على المعاني لا الألفاظ ، والحقائق لا العبرات ".[3]

- الجاحظ ، وكما ورد في كتابه البيان والتبيين ، قوله "فإذا كان المعنى شريفًا واللفظ بليغًا، وكان صحيح الطبع، بعيدًا من الاستكراه، ومنزهًا عن الاختلال مصوناً عن التكلف، صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة.[4]

(١) بلا نسبة في البيان والتبيين ١٧١/٢.
(٢) الحيوان ١٣١/٣ تح عبد السلام هارون ط عيسى الحلبي .
(٣) السابق ٥٤٢/٥
(٤) البيان والتبيين ٨٣/١ تح عبد السلام هارون ط ٢ لجنة التأليف سنة ١٩٦٠ .

فالجاحظ يشيد باللفظ ، فالأدب عبارة جميلة تتمثل في اختيار اللفظ وجودة النظم ، والشاعر هو من يجعل الشعر صناعته ولوناً من التصوير .

• بشر بن المعتمر ، والذي ذكر في صحيفته الخالدة " ومن أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما، فإن حقّ المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما "[١]

من ذلك نرى أن بشر بن المعتمر لا يفرق بين اللفظ والمعنى ، وإنما يسوي بينهما ويجعلهما تبعاً لبعض ويجب حمايتها وصيانتها .

• ابن قتيبة ، حيث قسم الشعر على أساس هذه النظرية إلى أربعة أقسام"
أ- ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه.

ب-وضرب منه حسن لفظه وحلا، فإذا أنت فتّشته لم تجد هناك فائدة فى المعنى.

ج-وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه .

د-وضرب منه تأخّر معناه وتأخّر لفظه .[٢]

• المبرد ، يعيب الكلام إذا لم يجر على نظم ولم يقع إلى جانب الكلمة ما يشاكلها ، إذ أول ما يحتاج إليه القول أن ينظم على نسق، ، وأن يوضع على رسم المشاكلة. ويستدل على ذلك بقول عمر بن لجأ لإبن عمٍ له : أنا أشعر منك، قال له، وكيف؟ قال: لأني أقول البيت وأخاه، وانت تقول البيت وابن عمه.[٣]

• الآمدي ، خالف من سبقوه ، حيث قدم اللفظ على المعنى " ومن الدليل على أنّ مدار البلاغة على تحسين اللفظ أنّ الخطب الرائعة، والأشعار الرائقة ما عملت لإفهام المعانى فقط؛ لأنّ الردىء من الألفاظ يقوم مقام الجيدة منها فى الإفهام، وإنما يدلّ حسن الكلام، وإحكام صنعته، ورونق ألفاظه، وجودة مطالعه، وحسن مقاطعه، وبديع مباديه، وغريب مبانيه على فضل قائله، وفهم منشئه.

وأكثر هذه الأوصاف ترجع إلى الألفاظ دون المعانى. وتوخّى صواب المعنى أحسن من توخّى هذه الأمور فى الألفاظ."[٤]

---

(١) البيان ١٣٦/١
(٢) الشعر والشعراء ٦٤/١ تح شاكر ط دار المعارف سنة١٩٦٦
(٣) الكامل ٣٣٥/١
(٤) الموازنة ص٥٧ تح محمد محيى الدين ط صبيح سنة١٩٦١ ، الصناعتين تح علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ص٥٨

• القاضي عبد العزيز الجرجاني ، الأمر عنده وسطية ، فهو لا يفارق بين اللفظ والمعنى "وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحّته، وجزالة اللفظ واستقامته، وتسلّم السّبْق فيه لمَنْ وصف فأصاب، وشبّه فقارب، وبدَهَ فأغزَر، ولمَن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته؛ ولم تكن تعبأ بالتجنيسوالمطابقة، ولا تحفِل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر، ونظام القريض."[١]

• أبي هلال العسكري ، حيث كان يميل إلى اللفظ وإيثاره على المعنى " الألفاظ أجساد، والمعانى أرواح؛ وإنما تراها بعيون القلوب، فإذا قدّمت منها مؤخّرا، أو أخّرت منها مقدّما أفسدت الصورة وغيّرت المعنى؛ كما لو حوّل رأس إلى موضع يد، أو يد إلى موضع رجل، لتحوّلت الخلقة، وتغيّرت الحلية." [٢]

• ابن طباطبا، يسير على منهج ابن قتيبة في التسوية بين اللفظ والمعنى ويجعلهما بمنزلة الروح والجسد فأحدهما ضروري للآخر " للكلام جسدٌ وروحٌ، فجسده النّطق – أي اللفظ – وروحه معناه "[٣] .

وكما قال في موضع آخر :" وللمعاني ألفاظ تشاكلها فتحسن فيها وتقبح في غيرها، فهي كالمعرض للجارية الحسناء التي تزداد حسنا في بعض المعارض دون بعض.

فكم من معنى حسن قد شين بمعرضه الذي أبرز فيه.

وكم من معرض حسن قد ابتذل على معنى قبيح ألبسه."[٤]

• أبو بكر الباقلاني ، يحاول الربط بين اللفظ والمعنى "إن تخير الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة، أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة، ولكن إذا برع اللفظ في المعنى البارع، كان ألطف وأعجب، من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المتكرر"[٥]

فهو بذلك يربط بين اللفظ والمعنى في الظاهر، ولكنه في الحقيقة يفضل المعنى على اللفظ؛ لأن مقياس الجمال عنده: أن المعنى البارع، إذا جاء في لفظ

---

[١] الوساطة تح محمد أبو الفضل وعلي البجاوي ط الحلبي سنة ١٩٦٦
[٢] الصناعتين ص١٦٧ ط الحلبي سنة١٩٧١، ص٦٩ ط٢ محمد صبيح سنة ١٩٣٠
[٣] عيار الشعر ص١١ ط المكتبة التجارية سنة ١٩٥٦ تح الحاجري وسلام .
[٤] السابق ص٥
[٥] إعجاز القرآن ص٦٣ تح السيد صقر ط دار المعارف سنة ١٩٥٤

بارع، فهو أفضل من وقوع المعنى المألوف في لفظ بارع.

ومثل هذا يلحقه بأنصار المعنى، وإن كان يرجع الفضل في إشارته إلى علاقة اللفظ بالمعنى، وإن لم يوضحها، ويعمق جوانبها، ويبين مدى الترابط التام بينهما لكن عبد القاهر الجرجاني أفاد منه كما أفاد من غيره.

• ابن رشيق القيرواني ، لما تعرض لتلك القضية رأى ما رآه بشر بن المعتمر والعتابي من أن اللفظ والمعنى مترابطان ، فاللفظ جسم والمعنى روحه وليسا منفصلين كالماء والكوب ، فقال " "اللفظ جسم وروحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه، ويقوى بقوته. فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصًا للشعر. وهجنة عليه كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشلل والعور. وما أشبه ذلك غير أن تذهب الروح. وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظا كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح. ولا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ وجريه فيه على غير الواجب قياسًا على ما قدمت من أدواء الجسوم والأرواح. فإن اختل المعنى كله وفسد بقي اللفظ مواتًا لا فائدة فيه. وإن كان حسن الطلاوة في السمع. كما أن الميت لم ينقص من شخصه شيء في رأي العين إلا أنه لا ينتفع به ولا يفيد فائدة. وكذلك إن اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى لأنا لا نجد روحًا في جسم ألبته".(١)

وهذا الذي ذكره ابن رشيق كما يجري في الشعر ينطبق على النثر تمامًا: "وبعضهم وأظنه ابن وكيع مثل المعنى بالصورة واللفظ بالكسوة. فإن لم تقابل الصورة الحسناء بما يشاكلها ويليق بها من اللباس. فقد بخست حقها وتضاءلت في عين مبصرها" .(٢)

• ابن سنان الخفاجي ، والذي يميل إلى اللفظ ويؤثره على المعنى ، ولكنه وضع لذلك شروط "إن الفصاحة على ما قدمنا نعت للألفاظ إذا وجدت على شروط عدة ومتى تكاملت تلك الشروط فلا مزيد على فصاحة تلك الألفاظ.

وبحسب الموجود منها تأخذ القسط من الوصف وبوجود أضدادها تستحق الأطراح والذم.

وتلك الشروط تنقسم قسمين فالأول منها يوجد في اللفظة الواحدة على انفرادها من غير أن ينضم إليها شيء من الألفاظ وتؤلف معه والقسم الثاني يوجد

(١) العمدة ص١٢٤ تح محمد محيى الدين عبد الحميد ط ٤ نشر دار الجيل سنة١٩٧٢
(٢) السابق ص٨٢.

في الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض."[١]

• ابن الأثير ، والذي رجح أيضاً كلام ابن سنان ومال معه إلى اللفظ ، وذلك إذا استلذ وحسن " الفصيح من الألفاظ هو الظاهر البيِّن، وإنما كان ظاهرًا بينًا لأنه مألوف الاستعمال، وإنما كان مألوف الاستعمال لمكان حسنه، وحسنه مدرك بالسمع، والذي يدرك بالسمع إنما هو اللفظ، لأنه صوت يأتلف عن مخارج الحروف، فما استلذه السمع منه فهو الحسن، وما كرهه فهو القبيح، والحسن هو الموصوف بالفصاحة، والقبيح غير موصوف بفصاحة؛ لأنه ضدها لمكان قبحه"[٢]

وبإستعراض تلك الآراء لزعماء البلاغة العربية على مر مراحلها ، نجدهم وقفوا أمام تلك القضية منقسمين إلى فئتين : فئة ترجح اللفظ ، والأخرى ترجع إلى المعنى و وإن كان هناك فئة وسط ربطت بين الإثنين ، ولكن من الواضح من كلامهم عدم سياق الأدلة والأسباب ؛ وهذا لم يكن موجوداً عندهم فقط ، بل كان موجوداً أيضاً عند أرسطو .

" فالكلمات عند أرسطو رموز المعاني ووسيلة للمحاكاة ، وهي المادة التي تصاغ منها الإستعارة و وهي متفاوتة فيما بينها ما بين جميلة أو قبيحة ، وجمالها أو قبحها ينشأ عن جرسها أو معناها ، هذا ولم يقف أرسطو طويلاً أمام اللفظ والمعنى ليرجح أحدهما على الآخر ، كما أنه لم يصرح بالانفصال بين الجانبين .[٣]

إذاً هي قضية قديمة ، وتحتل مكاناً عريضاً في عالم العربية وبحور البلاغة ، ولكن ولابد أن هناك أسباب قوية دفعت بها للظهور على الساحة ؛ " ومن الأسباب التي ساعدت على إبراز هذه القضية ظهور مذهب ابي تمام في البديع وكثرته كثرة فاحشة ، وتبعه في ذلك كثير من الشعراء ، وقد كان هذا المذهب يقوم على الصنعة والزخرف ، وعلى الدقة في المعاني والغوص وراء الأساليب من جهة أخرى ، مما جعله يخرج عن المألوف للشعر في تشبيهاته ، وألفاظه ، ويؤدي إلى التعقيد في أسلوبه ومعانيه ، فنرى النقاد عندئذ ينقسمون فريقين ، ويتخذ كل فريق منهما مذهباً في تقويم الشعر ، فبعضهم يرجع القيمة إلى المعنى ، وبعضهم يرجع القيمة إلى اللفظ ".[٤]

---

[١] سر الفصاحة ص٦٥ القاهرة سنة ١٩٥٢
[٢] المثل السائر ص٢٧ ط ١ نشر المكتبة التجارية سنة ١٣٥٤هـ
[٣] النقد الأدبي الحديث د محمد غنيمي هلال ص٢٩٠ ط القاهرة سنة ١٩٦٢
[٤] فن البلاغة د عبد القادر حسين ص٥١ ط اظلمانة .

النشأة والبداية

أما كيف نشأت ؟ ومتى بدأت ؟

فهي بدأت منذ نزول القرآن ، فعندما نزل القرآن واستمع إليه العرب سحرهم ببيانه وجماله ، وبفصاحته ، وبلاغته حتى سمعنا الوليد بن المغيرة يقول عنه : وَاللَّهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمُ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي وَلَا أَعْلَمُ بِرَجَزِهِ وَلَا بِقَصِيدَتِهِ مِنِّي وَلَا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ، وَاللَّهِ مَا يُشْبِهُ هَذَا الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا وَاللَّهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَى وَإِنَّهُ لَيُحَطِّمُ مَا تَحْتَهُ .[1]

ثم قال : إن هذا إلا سحر يؤثر ، والقساوسة والرهبان " إِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ " المائدة/٨٣

فالقرآن من شأنه إذا استمع إليه إنسان أن يتحرك مشاعره ، ويهتز قلبه طرباً ، أو يقشعر بدنه خوفاً ، أو ينعصر فؤاده رجاءً .

فهل كان سحره وحسن وقعه على الأذان ، وشدة أثيره على النفوس ، وإفاضة الدموع عند سماعه لِما فيه من جمال في العرض ، وقوة في الأداء ، وإيقاع في العبارة على نحو فريد ؟

أو كان سحره وشدة تأثيره لِما فيه من معانٍ سامية تدعو إلى الخير والحق ، وتنفر من الانحراف والشر ، وتبصرهم أمور دينهم ودنياهم ، وتهدِ بهم الطريق العدل والصواب ، وتبعدهم عن سبيل الجور والخطأ؟

هل كان سحر القرآن ونظمه ترجع إلى ألفاظه ؟ أم إلى معانيه ؟

في هذا الجو الديني نشأ الكلام عن " اللفظ والمعنى " وتشعبت فروعه ، حتى صارت قضية " اللفظ والمعنى من أهم القضايا التي يهتم بها النقاد ، ولم تعد مشكلة اللفظ والمعنى قاصرة على الحديث عن القرآن ، وإنما انتقلت إلى الأدب بوجهٍ عام ، والشعر بوجه خاص.

❑❑❑

[1] المستدرك على الصحيحين ٥٥٠/٢ برقم ٣٨٧٢

اللفظ والمعنى عند عبد القاهر الجرجاني

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا ، هو : ما موقف عبد القاهر من تلك القضية ؟ وهل كان من أصحاب اللفظ ام من أصحاب المعنى ؟ وهل تكون الفصاحة في اللفظ دون المعنى ؟ وهل الألفاظ تختلف بإختلاف موقعها ؟ وهل الألفاظ المفردة تدخل في إعجاز القرآن ؟ وهل المراد بالمعنى عنده هو المعنى الغُفل العام ؟ وما هو المراد بـــ " معنى المعنى "؟ وما هي أهداف عبد القاهر من نظريته هذه ؟ وما موقفه من الشعر الجيد ؟

كم من الأسئلة في انتظار شيخنا عبد القاهر كي يجيب عنها و ويكشف الستار لنا عن حقائقها.

وقبل غجابة عبد القاهر ، لابد لنا من كلمة هنا ، وهي : أن عبد القاهر قد وقف تجاه هذه القضية موقف المحايد ، فعنده أن اللفظ لا يمكن أن يستغنى عن المعنى ، ولا المعنى يستغني عن اللفظ .

" فاللفظ لا ينفك أبداً عند الجرجاني عن المعنى ، ولقد قال الرجل إن المعنى الشريف مثلاً تزداد بالتصوير قيمته ويرتفع به قدره ، بل إن لغير الشريف من المعنى بالتصوير قيمة تعلو ومنزلة تعلو.

المهم.. ان الصلة بين اللفظ والمعنى مكينة ، فهما بمنزلة المادة والصورة ، بمثابة الروح والجسد ".(١)

والسؤال التالي : هل تكون الفصاحة في اللفظ دون المعنى ؟

الإجابة عنه بالرفض ، فقد رفض عبد القاهر الإعتداد باللفظ وحده ، فنفى أن تكون الفصاحة صفة اللفظ من حيث هو لفظ .(٢)

وإذا كان عبد القاهر يرفض أن تكون الفصاحة صفة للفظ المفرد ، فإنه أيضاً يرفض أن ترجع البلاغة إلى اللفظ وحده .

" وأمَّا رجوع الاستحسان إلى اللفظ من غير شِرْكٍ من المعنى فيه، وكونِه من أسبابِهِ ودواعيه، فلا يكاد يَعْدُو نمطاً واحداً، وهو أن تكون اللفظة مما يتعارفه الناس في استعمالهم، ويتداولُونه في زمانهم، ولا يكون وَحْشِياً غريباً، أو عامّياً

---

(١) الشعرية في الشعر ص٧١ د قاسم المومني – مجلة فصول ع٢ / م٦ / سنة١٩٨٦
(٢) أسرار البلاغة عبد القاهر الجرجاني ص٢٦ تح محمد عبد المنعم خفاجة ط٣ مكتبة القاهرة سنة ١٩٧٩

سخيفاً ".[١]

"وهل نَجِد أحداً يقول: هذه اللَّفظة فصيحة إلاَّ وهو يعتبر مكانَها من النظم، ومن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها، وفَضْلَ مؤانَسَتِها لأخواتها؟! وهل قالوا: لفظةٌ متمكّنةٌ ومقبولة، وفي خلافه: قَلِقةٌ ونابيةٌ مستكرهة، إلاَّ وغرضُهم أن يُعَبِّروا بالتمكّن عنْ حُسْنِ الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناها. وبالْقَلَق والنُّبُوّ عن سوء التلاؤم، وأنَّ الأولى لم تَلْتَق بالثّانية في معناها، وأنّ السَّابقةَ لم تَصلُحْ أنْ تكون لِفْقاً[٢] للتالية في مؤدّاها؟! ".[٣]

" فالألفاظ لا تتفاضَلُ من حيث هي ألفاظٌ مجرَّدة، ولا من حيثُ هي كلمٌ مفردةٌ، وأن الفضيلة وخلافها، في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها٤، وما أشبهَ ذلك، مما لا تَعلُّقَ له بصريحِ اللفظ. وممَّا يَشهد لذلك أنَّك تَرى الكلمةَ تروقُك وتُؤنسك في موضعٍ، ثم تَراها بعينِها تَثْقُلُ عليكَ وتُوحِشُك في موضعٍ آخرَ".[٤]

وبتحليل النصوص السابقة ، يمكن أن نستنتج الآتي :

- أن الألفاظ في حد ذاتها ليس لاها قيمة ولا مزية ، وإنما القيمة الحقيقية في جمالها ونجاحها عندما تعبر عن موقف يُثار من خلال ترتيبها و وتنظيمها ، وحسن تاليفها مع أخواتها .
- أن اللفظة المفردة لا تستطيع أن تؤدي معنى بمفردها ، وإنما بإنضمام اللفظة بجوار الأخرى وهكذا ، يخرج لنا جملة مفيدة ، وبإنضمام الجملة مع الأخرى يخرج لنا صورة أدبية ، وعمل أدبي متكامل بارز المعاني .
- أن دلالة اللفظ غير ثابت ، وإنما تتغير بتغير موقعها في الجملة .
- الألفاظ طائفة من الإمكانات التي يعاد تشكيلها على الدوام ، وليس هناك دلالة واحدة يمكن أن تعرف ، فاللفظ متغير الدلالة دائماً.[٥]

---

[١] السابق ص٣٣
[٢] لِفْقاً: يَقْصِد أنْ تكون الكلمة ملائمةً ومُلتَحمةً مع جارتها كَتَلاؤُمِ الشّقِ المخيط بالشّقِّ الآخرِ من الحُلّة. يقالُ لغة: حُلَّةٌ ذاتُ لِفْقَيْن، أي: ذاتُ شِقّينِ مُنْضَمَّيْنِ معاً بالخياطة، ولا يُقال للشّقّ "لِفْقٌ" إذا فُتِقَتِ الخياطةُ الضّامَّةُ لهما.
[٣] دلائل الإعجاز ص٣٦ تعليق محمد عبده ط دار المعارف
[٤] السابق ص٣٨
[٥] الصيغة الإنسانية للدلالة د مصطفى ناصف ص٩٧ مجلة فصول ع٢ / م٦ / سنة ١٩٨٦

" إن الألفاظ عند عبد القاهر الجرجاني وسائل التعبير عن المواقف ، وأن الكلمات رموز للدلالة على الأفكار ، ويتوقف نجاح الألفاظ بمدى إفصاحها عن المعاني ، وعلى الفنان أن ينسقها بما يتمشى مع الموقف أو بالأحرى يرى الرجل أن لكل إحساس الألفاظ التي تعبر عنه ، ولهذا فإنه يرفض هذه النظرة الإستقلالية إلى اللفظ والمعنى في قضية النقد الأدبي أو الأعمال الفنية .

وعنده أن المزية في حديث البلغاء ليست في الألفاظ بوصفها كلمات مفردة من حيث الشكل الخارجي ، وإنما تتمثل في قدرتها على إثارة المواقف والتعبير عنها ".[١]

" فالإحساس هو الذي يلد الألفاظ ، والألفاظ تترتب حسب الموقف الذي يحتاج إليها ، والشاعر حين يؤلف الشعر ، والكاتب حين يؤلف النثر لا يفكر في المعنى مستقلاً ، ولا في اللفظ منفرداً ، وإنما تتم عملية الخلق من العنصرين معاً".[٢]

إذاً الألفاظ تعبر عن الإحساس أينما تكون ، فالألفاظ هي التي تصور ما بأعماق الأديب صاحب التجربة فتنقلها إلى القارئ ويتأثر بها[٣] ، ولا يتم لها ذلك إلا بالاتساق والتجانس مع أخواتها في السياق الكلامي حتىتخرج لفظة شاعرية موحية .

" تستطيع الألفاظ بوضعها في السياق أن تستمد دلالتها من علاقتها بالكلمات السابقة لها واللاحقة لها ، وبما يمكن أن تكتسبه في مكانها الذي وضعت فيه من إشعاعات وإضافات جديدة ، ومن ثم كانت الكلمة المفردة مجرد إشارة إلى الصورة الباردة للشئ ، أما الكلمة المستخدمة في سياق فهي شحنة من العواطف الإنسانية والصور الذهنية ، والمشاعر الحية إلى جانب ما فيها من معنى عقلي مجرد ".[٤]

من هذا المنطلق نستطيع أن نقول ، ونحدد موقف اللفظة المفردة من الإعجاز القرآني ، وفي ذلك يقول الجرجاني :" إنَّ هذا الوصفَ ينبغي أنْ يكونَ وصْفاً قد تجدَّد بالقرآن، وأمر لم يُوجَدْ في غيرهِ، ولم يُعْرف قَبْلَ نزوله. وإذا كان كذلك؛ فقد وَجَب أنْ يُعْلَم أَنه لا يجوزُ أن يكونَ في "الكَلم المفردةِ"، لأَنَ تقديرَ كونِه فيها يؤدِّي إلى المُحال، وهو أن تكونَ الألفاظُ المفردةُ التي هي أوضاعُ

(١) مقالات في النقد الأدبي القديم د مصطفى على عمر ص٢٢٤ ط دار المعارف سنة ١٩٨٧
(٢) قضايا النقد الأدبي والبلاغة د محمد زكي عشماوي ص١٢٧ ط الأولى دار الكتاب سنة ١٩٦٧
(٣) العمل الأدبي بين الذاتية والموضوعية د مصطفى علي عمر ص٢٣ ط دارالمعارف سنة ١٩٨٦
(٤) theorg ofliterture-wollek-warren (london ١٩٥٥) p-١٢

اللُّغة، قد حدَثَ في مذاقة حروفِها وأصدائها أوصافٌ لم تكُن، لتكونَ تلك الأوصاف فيها أقبل السامعون عليها إذا كانت متلوَّة في القرآن، لا يَجدونَ لها تلكَ الهيئاتِ والصفاتِ خارجَ القرآنِ. ولا يجوزُ أن تكونَ في "معاني الكلم المفردة"، التي هي لها بوضع اللغة؛ لأنه يؤدي إلى أن يكونَ قد تجدد في معنى "الحمد" و"الرب"، ومعنى "العالمين" و"الملك" و"اليوم" و"الذين"، وهكذا، وصْفُ لم يكُنْ قَبْلَ نزولِ القرآن. وهذا ما لَوْ كان ههنا شيءٌ أَبْعَدُ من الحال وأشنعُ لكان إيَّاه ".[1]

من هذا نستطيع أن نقول " أن الألفاظ المفردة من حيث هي أصوات ، أو من حيث معانيها لا تدخل في إعجاز القرآن البلاغي ، وبالتالي لا تدخل في الفصاحة ، لأن ذلك يؤدي إلى أن الألفاظ معجزة بأوضاعها اللغوية ، وما يطوى فيها من اصواتها وزنة حركاتها وسكناتها ، ولو صحّ ذلك لبطل إعجاز القرىن ، وأن هذا الإعجاز شئ تجدد بنزولة بعد أن كان معدوماً وحدث بعد أن كان مفقوداً".[2]

نعود فنقول " إن اللفظ اللغوي لا تتضح دلالته إلا خلال السياق الأسلوبي الذي يدرج فيه ، فليس كل لغوي يحمل دلالية ثابتة ومستقلة ، تستدعي عند النطق به في كل موطن يُساق فيه ، وإنما تتلون دلالة الألفاظ بألوان الكلمات المجاورة لها في العبارة ".[3]

وفي هذا المعنى يضرب لنا عبد القاهر مثالين عن كلمتين اختلفا بإختلاف موقعهما في السياق .

- الأولى كلمة (الأخدع) في بيت الحماسة لإبن الصمة :

تلفَّتُّ نَحْوَ الحَيِّ حَتّى وجدْتُني ... وجِعْتُ من الإصغاء ليتا وأخدعا

وبيت البحترى:

وإني وإن بلغني شرَفَ الغِنى ... وأَعتقْتَ مِنْ رقِّ المَطامع أَخْدَعي

فهنا الكلمة قد ادت دورها واعجبت عبد القاهر حتى قال " فإنَّ لها في هذين المكانَين ما لا يَخْفَى مِن الحُسْن".[4]

---

(١) الدلائل ص٢٥٠
(٢) البلاغة تطور وتاريخ د شوقي ضيف ص١٦٥ ط دار المعارف .
(٣) أزمة المصطلح في النقد القصصي د عبد الرحيم محمد عبد الرحيم ص٩٨ مجلة فصول ع٣ / م٧ / سنة ١٩٨٩
(٤) الدلائل ص٣٩

ثم إنّكَ تتأَمَّلها في بيت أبي تمام:

يا دَهْرُ قوِّمْ مِن اخْدَعَيْكَ فقدْ ... أضْجَجْتَ هذا الأنامَ مِن خَرُقكْ

في هذا البيت عبد القاهر لا يرى في هذا التشخيص فائدة ولا يعجبه هذه الفكرة ؛ لأن الدهر في هذا البيت يتعمد الإقلاق ، وهو في حد ذاته قدحاً في ذات الله ، لأن الدهر هو الله ، كما جاء في الحديث"لا تَسُبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ"[1] وفي ذلك يقول الجرجاني :" فتَجدُ لها مِنَ الثقل على النفس، ومن التبغيص والتكْدير، أضعافَ ما وجدتَ هناك منَ الروْح والخفة، ومن الإيناس والبهجة.".[2]

– الثانية كلمة (شئ) في قولِ عمرَ بن أبي ربيعة المخزومي ، يصف سلوك الناظرين إلى النساء البيض عند موضع رمي الحجارة في الحج:

ومن مالئ عينيه مِنْ شيء غيرِهِ ... إذا راحَ نحو الجمرة البيض كالدمي

وقول أبي حية النجدي ، وهو من شعراء بني أمية المجددين :

إذا ما تَقاضي المرءَ يومٌ ولَيلةٌ ... تَقاضاهُ شيءٌ لا يَملُّ التَّقَاضِيا

يقول " فإنك تَعرف حُسْنَها ومكانها من القبول، ثم انظر إليها في بيت المتنبي:

لَو الفَلَكُ الدوَّارُ أبغضْتَ سَعْيَهُ ... لعوَّقَهُ شيءٌ من الدوران

فإنك تراها تقل وتضول، بحَسب نُبْلها وحُسْنها فيما تقَدَّم، ثم يقول :

" فلو كانتِ الكلمةُ إذا حَسُنتْ حَسُنتْ من حيث هي لفظٌ، وإذا استَحقَّت المزيةَ والشرفَ استحقَّتْ ذلك في ذاتِها وعلى انفرادِها، دونَ أن يكونَ السببَ في ذلك حالٌ لها مع أَخَواتها المجاورةِ لها في النَّظْم، لما اختلفَ بها الحال، ولكانت غما أن تحسن أبدًا، ولا تحسن أبدًا".[3]

" معنى ذلك أن عبد القاهر لم يعن بأمر المترادفات في الألفاظ ، فلا ترادف في الألفاظ التي تشملها اللوحة التصويرية اللغوية ، وهنا يربط عبد القاهر بين الصياغة من حيث هي صورة وبين معناها ".[4]

(١) أخرجه أحمد ٢٩٩/٥
(٢) الدلائل ص٣٩
(٣) السابق ص٤١
(٤) النقد التحليلي د أحمد عبد السيد الصاوي ص١٤٦

ودليل آخر على تغير اللفظ حسب موقعها في الجملة ، قوله " لو كان القصدُ بالنَّظم إلى اللفظِ نَفْسِه، دونَ أن يكونَ الغرضُ ترتيبَ المعاني في النَّفس ثم النطقَ بالألفاظ على حَذْوها، لَكانَ يَنْبغي أن لا يَخْتلف حالُ اثنين في العِلْمِ بحُسْنِ النظْم أو غير الحسن فيه، لأنهما يحسبان بتَوالي الألفاظِ في النُّطق إحساساً واحداً، ولا يَعْرِفُ أحدُهما في ذلك شيئاً يَجْهلُهُ الآخرُ.".[١]

ولذلك يربط عبد القاهر بين السطح الخارجي والدلالة ، او لنقل ببساطة بين اللفظ والمعنى ، ولكنه يجعل السطح يتكيف بحسب تكيف الدلالة النفسية ، أو لنقل ببساطة أيضاً أنه يجعل اللفظ تابعاً للمعنى .[٢]

ومما يدل على ذلك قوله " أنها – أي الألفاظ– خدم للمعاني وتابعة لها ولاحقة بها[٣] وأن اللفظ تبع للمعنى في النظم .[٤]

" ويتفق مع عبد القاهر في هذا (نوديبه) الذي يقول :" إن الكلمة ثمرة للفكرة فمتى نضجت الفكرة سقطت كما تسقط الثمرة الناضجة ، ولكنها تسقط على كلمتها .

ويتفق معه أيضاً (جوبير) الذي يقول :" وعندما تصل الفكرة إلى تمامها تصبح بكلمتها السابقة ".[٥]

ولفقه الرجل ولعلمه بأن هناك من سيجادل في أمر المزية بين اللفظ والمعنى وإلى أيهما تصير ، فإنه أتى بشبهتين وفندهما ورد عليهما و وهي قوله :" فإنْ قيل: إذا كانَ اللفظُ بمَعْزِلٍ عن المزيَّةِ التي تنازعْنا فيها، وكانت مقصورةً على المعنى، فكيف كانتِ "الفصَاحةُ" من صفاتِ اللفظِ البتَّةَ؟ وكيف امْتَنَع أن يَوصفَ بها المعنى فيقالُ: "معنًى فَصِيحٌ، وكلامٌ فصيحُ المعنى"؟

قيل: إنَّما اختُصَّت الفصاحةُ باللفظِ وكانت مِنْ صِفته، من حيثُ كانت عبارةً عن كونِ اللفظِ على وَصْفٍ إذا كان عليه، دلَّ على المزيّةِ التي نحنُ في حديثها، وإِذا كانت لِكَوْن اللفظ دالآً، استحالَ أنْ يُوصفَ بها المعنى، كما يَسْتَحيلُ أن

---

[١] الدلائل ص٤٢
[٢] الأسس الجمالية في النقد الأدبي د عز الدين إسماعيل ص١٧٠ ط دار الفكر .
[٣] الدلائل ص٤٤
[٤] السابق ص٤٥
[٥] بلاغة أرسطو بين العرب واليونان د إبراهيم سلامة ص١٢٥ ط الثانية – الأنجلو المصرية سنة ١٩٥٠ ، وارجع إلى :
- النقد التحليلي ص١٧١
- المجمل في فلسفة الفن ص٥١ بندتوكروتشية ترجمة سامي الدروي ط دار المعارف سنة١٩٤٧
-الفلسفة اليونانية أصولها وتطوراتها البيرريفو ترجمة عبد الحليم محمود ص١٥٩ ط مكتبة العروبة سنة ١٩٥٨

يوصَف المعنى بأنه "دال" مثلًا، فاعرفه.(١)

فعبد القاهر محال عنده أن يقوم اللفظ على حدة وينفصل عن المعنى ، فهما بخيط واحد ، ووجهان لعملة واحدة .

ثم يورد الشبهة الثانية ، قائلاً:" فإنْ قيل: فماذا دَعا القدماءَ إلى أن قَسَموا الفضيلةَ بينَ المعنى واللفظِ فقالوا: "معنى لطيفٌ، ولفظٌ شريفٌ"، وفَخَّموا شأنَ اللَّفظِ وعظَّموه حتى تَبِعَهم في ذلك مَن بَعْدَهم ، وحتى قالَ أهلُ النَّظر: "إنَّ المعاني لا تَتزايد، وإنما تتزايدُ الألفاظُ" ، فأَطلقوا كما ترى كلاماً يُوهِمُ كلَّ مَنْ يَسمعهُ أنَّ المزيَّةَ في حاق اللفظ؟ .
قيلَ له: لما كانتِ المعاني إنما تَتبيَّنُ بالألفاظِ، وكانَ لا سبيلَ للمرتِّب لها والجامعِ شَمْلَها، إلى أن يُعْلمكَ ما صنَعَ في ترتيبها بفِكْره، إلا بترتيبِ الألفاظِ في نُطْقه، تجوَّزوا فكنَّوا عن ترتيبِ المعاني بترتيبِ الألفاظِ، ثم بالألفاظَ بحذْفِ "الترتيب"، ثم أَتْبَعوا ذلك منَ الوصفِ والنعْت ما أبانَ الغرضَ وكشفَ عن المُراد: كقولهم: "لفظٌ متمكّنٌ"، يُريدون أنه بموافقةِ معناهُ لمعنى ما يليهِ كالشَّيءِ الحاصلِ في مكانٍ صالحٍ يطمئنُّ فيه "ولفظٌ قلِقٌ نابٍ"، يُريدون أنه مِنْ أجْل أنَّ معناهُ غيرُ موافقٍ لماَ يَليه، كالحاصل في مكانٍ لا يَصلُح له، فهو لا يستطيعُ الطمأنينةَ فيه إلى سائرِ ما يجيءُ في صفةِ اللفظِ ، مما يُعْلَم أنه مستعارٌ له مِنْ معناه، وأنهم نَحَلوه إيّاهُ، بسببِ مضمونهِ ومؤدَّاه.

هذا، ومَنْ تَعلَّق بهذا وَشَبَهه واعترضَهُ الشكُّ فيه، بعدَ الذي مضَى منَ الحِجَج، فهو رجلٌ قد أَنِسَ بالتقليدِ، فهو يَدْعو الشبهة إلى نفسه من ههنا وثَمَّ. ومَنْ كان هذا سبيلَه، فليسَ له دواءٌ سِوى السكوتِ عنه، وترْكِهِ وما يَختارُه لنفسِه من سُوءِ النظرِ وقِلَّةِ التدبُّرْ."(٢)

ثم يعود عبد القاهر مستنكراً قائلاً :"واعلمْ أَنك إذا رجعتَ إلى نفسِك علمتَ علْماً لا يعترضُه الشكُّ، أنْ لا نَظْمَ في الكَلِم ولا ترتيبَ، حتى يُعلَّقَ بعضُها ببعضٍ، ويَبْني بعضُها على بَعض، وتُجعلَ هذه بسبب من تلك. هذا ما لا يَجهلُه عاقلٌ ولا يخفَى على أحدٍ منَ الناس."(٣)

(١) الدلائل ص٥٠
(٢) السابق ص٥٠ ، ٥١
(٣) السابق ص٤٤

إذاً ففصاحة الألفاظ وبلاغتها لا ترجع إلى الألفاظ بشهادة الصفات التي توصف بها ، وإنما ترجع إلى صورتها ومعرضها الذي تتجلى فيه وبعبارة أخرى : ترجع إلى نظمها وما يطوى فيه من خصائص .

" ومعنى ذلك : أن هذه الصفات ليست صفات للألفاظ في أنفسها ، وإنما هي صفات عارضة لها في التأليف والصياغة بسبب دقائق بلاغية لم تكن لها قبل سياقها الذي أخذته في صورة نظمها "(١)

ولما أنكر عبد القاهر أمر المزية للفظ ، كذلك أنكر المزية للمعاني ، فيقول :" واعلمْ أنك لستَ تنظرُ في كتابٍ صُنِّفَ في شأنِ البلاغةِ، وكلامٍ جاءَ عن القدماءِ، إلاَّ وجدْتَه يَدلُّ على فسادِ هذا المذهبِ، ورأيتَهُمْ يَتشدَّدُون في إنكارِه وَعْيبه والعَيْبِ به.

وإذا نظرتَ في كتب الجاحظَ وجدتَه يبلغُ في ذلك كلَّ مَبلغٍ، ويتشدَّد غايةَ التشدُّد، وقد انتهى في ذلك إلى أنْ جعلَ العِلْم بالمعاني مشتركاً، وسوَّى فيه بينَ الخاصَّة والعامَّة"(٢)

نخلص من هذا بأمرين خطيرين ، وهما :

الأول : أن الألفاظ لم توضع ولا تستعمل لتعيين الأشياء المتعينة بذواتها ، وهذه هي نظرية " الرمزية في اللغة " وخلاصتها :

أن لدينا صورة ذهنية لكل شئ ، ولكل حدث وإنما نضع ألفاظ اللغة ونستعملها لنحرك هذه الصورة الذهنية الكامنة ، فلا يمكن أن يثير لفظ " طفل " مثلاً في نفوسنا شيئاً ما لم يكن في ذهننا صورة للطفل ، فاللفظ رمز لها ومحرك.(٣)

الثاني : أننا لا نستخدم ذلك اللفظ لنحرك الصورة الذهنية تحريكاً نريده لذاته ، وإنما نفعل ذلك لأننا نعتزم أن نخبره عن الطفل بشئ ما .(٤)

هنا يؤدي بنا إلى إشارة هامة ، وهي :

" أن اللغة عند عبد القاهر عبارة عن مجموعة من العلاقات ، وهو بذلك يتفق مع العالم السويسري (فردينا نردي سوسيير) واللغة عنده : نظام من العلاقات وليست تجميعاً للألفاظ ، وهو الذي يهتم بالتعبير الوصفي ويهمل

(١) البلاغة تطور وتاريخ ص١٦٤
(٢) الدلائل ص١٦٨
(٣) مقدمة الدلائل ص١٣
(٤) السابق ص١٥ ، وارجع إلى " في الميزان الجديد " د محمد مندور ط٢ نهضة مصر سنة١٩٤٤

العنصر التاريخي ."[1]

يترتب على اتجاه عبد القاهر هذا أننا يجب أن ننبه إلى شئ آخر وهو : أن الواحد " الشخص " لا يستطيع أن يفضل لفظه بحجة أنها شاعرية ، أو يرفضها بحجة أنها غير شاعرية ، فلا توجد لفظة شاعرية ولفظة غير شاعرية ، أو يعترض على صورة لأنها غير جميلة في ذاتها ، أو عكس ذلك فكل ما في العمل الفني يخضع لقوانينه الفنية الخاصة ، ومن أجل ذلك قال " ريتشاردز" في كتابه : أصول النقد الأدبي .

"ليس للكلمات في ذاتها صفات أدبية خاصة ، ولا توجد كلمة قبيحة أو جميلة في ذاتها أو من طبيعتها أن تبعث على اللذة أو عدمها ، ولكن لكل كلمة مجال من التأثيرات الممكنة يختلف طبقاً للظروف التي توجد بها ".[2]

معنى ذلك : أن أي كلمة في العمل الأدبي " الفني " لا يمكن تغييرها أو استبدالها بأخرى دون أن يفقد السياق معناه ، فكل لفظة مستقلة بوجودها ، متميزة بشخصيتها ، وليس هناك لفظة يمكن أن تتساوى مع الأخرى في محصولها من الشعور ، ولو تشابهت كلمتان في المعنى لرأينا أن لكل منهما روحاً متباينة ، من أجل ذلك قال " كولردج" : " إن الشعر الرائع هو الذي لا يمكن ترجمته إلى ألفاظ اخرى دون أن يفقد جماله شيئاً ".[3]

من هذا كله نستطيع أن نستنتج أربع نقاط :

- **الأولى** : أن الشعر الرائع لا يمكن ترجمته دون أن يفقد ثلاث أرباع معناه الشعوري.
- **الثانية** : أنه لا يمكن ترجمة القرآن الكريم ، إلا إذا اعتبرنا الترجمة هي تفسير لمعاني القرآن ، وهذا ما قاله عبد القاهر .
- **الثالثة** : أن التجربة الشعرية هي صياغة نفسية تستطيع اللغة أن تعبر عنها .
- **الرابعة** : أن إساءة فهم الشعر مردها إلى التركيز على العنصر الفكري أو العقلي أو المصلحة .

❑❑❑

[1] النقد المنهجي ص٣٢٧ د محمد مندور ط دار النهضة .
[2] النقد الإنجليزي الحديث ص١٧ ترجمة ماهر شفيق فريد – المكتبة الثقافية عدد ١٩٧٠/٩/١
[3] كولردج ص١٩ د مصطفى بدوي ط دار المعارف سنة ١٩٥٨

اللفظ والمعنى عند المعاصرين

وكما شغلت هذه القضية القدماء ، فكذلك شغلت المحدثين المعاصرين .

- فقد ناقش الدكتور بدوي طبانة مسألة اللفظ والمعنى ووحدة العمل الأدبي ، وقرر أن العمل الأدبي وحدة مؤلفة من الشعور والتعبير وقال " إننا نجد صعوبة مادية في تقسيم العمل الأدبي إلى عناصر ، لفظ ومعنى أو شعور وتعبير ، ليست الصورة التعبيرية إلا ثمرة للإنفعال بالتجربة الشعورية ، وليست القيمة الشعورية إلا ما استطاعت الألفاظ أن تصوره وتنقله إلى مشاعر الآخرين .[١]

- وتعرض الأستاذ أحمد حسن الزيات لها بأجمل وصف قائلاً : " الكلام كائن حي روحه المعنى وجسمه اللفظ ، فإذا فصلت بينهما أصبح الروح نفساً لا يتمثل والجسم جماداً لا يحس ".[٢]

- وقد أوجز الدكتور سعد مهنا القضية في قوله :" وخلاصتها : أن ترتيب المعاني في الذهن هو الذي يقتضي ترتيب الألفاظ في العبارة ، وأن اللفظ لا مزية له في ذاته ، وإنما مزيته في تناسق معناه مع معنى اللفظ يجاوره في النظم ، أي تنسيق الكلام والكلمات والمعاني بحيث يبدي النظم جمال الألفاظ والمعاني مجتمعة ، وترى أن الجمال الفني رهين بحسن النسق أو حسن النظم كما إنه لا اللفظ منفرداً موضع حكم أدبي ولا المعنى قبل أن يعبر عنه في لفظ ، وإنما هي بإجتماعها في نظم يكون موضع إستحسان أو إستهجان ".[٣]

- أما الدكتور عز الدين إسماعيل فيرى : اللفظة بمفردها لا تُحب ولا تستكره ، أو بعبارة أخرى لا تحسن ولا تقبح ، وإنما مكانها من العبارة ومدى إنسجامها مع بقية الألفاظ هو الذي يحدد هذا الحسن أو القبح ".[٤]

- ويقول الدكتور نصر أبو زيد " فاللفظ لا يكون لفظاً ، إلا هو دال على معنى ، فإذا تعرَّى اللفظ عن معناه فهو محض صوت لا دلالة فيه ، ولا يتصور فيه نظم أو ترتيب ".[٥]

- أما الدكتور مصطفى علي عمر فإنه يرى أن عبد القاهر قد أضاف للنقد

---

[١] التيارات المعاصرة في النقد ص١٨٤ ط الأولى – لجنة البيان العربي – نشر الأنجلو سنة ١٩٦٣
[٢] دفاع عن البلاغة ص١٧ مطبعة الرسالة سنة ١٩٤٥ ، وانظر أيضاً ص٥٩-٨٧
[٣] محاضرات في النقد الأدبي والأدب المقارن ص٤٨ ط سنة ١٩٨٥
[٤] الأسس الجمالية في النقد الأدبي ص٢٧٠ ط٣ دار الفكر العربي سنة١٩٧٤
[٥] مفهوم النظم عند عبد القاهر ص٢١ مجلة فصول م٥ سنة ١٩٨٤

الأدبي وأثراه ، فيقول:" وهكذا نجد أن الإضافة الأولى التي أضافها عبد القاهر الجرجاني إلى النقد الأدبي والتي لم يتنبه إليها من سبقوه من النقاد تتجسد في العلاقة التي جعلها بين اللغة والعمل الأدبي ، وبذلك حرر النحو من القوالب الجامدة التي صبّها فيه النحاة ، وجعل له وظيفة هامة في النقد الأدبي وتتمثل إضافة عبد القاهر الجرجاني الثانية في قضائه على ثنائية اللفظ والمعنى ، وإذا كان الناقد العربي قد أكد أن اللغة من حيث هي كلمات لا يمكن الفصل بين شكلها الخارجي ومضمونها نراه وقد لفظ لآراء التي ذكرها من سبقوه من النقاد الذين فضلوا اللفظ على المعنى أو ممنفصلوا بينهما ".[١]

وخلاصة القول في قضية اللفظ والمعنى :

" أن عبد القاهر الجرجاني لا يرى قيمة للكلمة إلا في علاقة ، ولا يرى العلاقات في الجملة الشعرية إلا من جهة أنها أدوار جمالية تلك التي تظهر في الإرتباطات بين عناصر الجملة بعضها وبعض ، وفي تفاعل متبادل بين الجمل والكلمات في السياق ، ولذلك كانت عملية الخلق الأدبي كامنة في كيفية تعامل الشاعر مع اللغة ، إذ أنه يوجه الأجزاء إلى مواضعيها في نظامها ، ويوجه الأنظمة إلى علاقتها في تركيبها تحقيقاً للتفاعل بين هذه العناصر مما يكون بنية العمل الشعري ومما يتيح لنا فرصة التفكير في حيوية المعنى ، فحيث تتجاهل الكلمة المفردة في ذاتها ونبحث عنها في موقعها من السياق ، حيث ندرك هذه الحيوية ودرجة تأثيرها ولعل فكرة السياق هذه خطوة إلى إدراك تفصيلي لدور السياق نفسه في صنع القصيدة ، فاللفظة يتحقق وجودها وتفاعلها وجمالها بالجملة ، والجملة تحقق وجودها تبعاً لذلك باندماجها وترافقها مع جملة أخرى ضمن البيت الذي يحتوي على أكثر من جملة ، وهذا مما يغري بضرورة توضيح علاقة البيت نفسه بما قبله وما بعده ، بل بما ورد من أبيات في أول القصيدة حتى آخرها وبهذا يشمل العمل النقدي مساحة القصيدة كاملة بوصفها بنية حية مكونة من أجزاء تربطها علاقات متبادلة ويتحقق لنا حينئذ تتبع إتساع رقعة المعنى الشعري ومدى حيويته وتأثيره الجمالي معاً".[٢]

---

[١] مقالات في النقد الأدبي القديم ص٢٢١
[٢] مفهوم الجمال عند عبد القاهر الجرجاني ص٩١ ،٩٢ د أحمد عبد السيد الصاوي سنة ١٩٨٨

معنى المعنى عند عبد القاهر الجرجاني

يؤكدعبد القاهر أن ما يقصده بـــ (المعنى) ليس معنى الكلمة المفردة ، فالكلمة المفردة لا ينطوي معناها الخاص على أية مزية بيانية ، وإنما المزية والفضيلة في نظره للمعنى الواحد المفهوم من مجموع الكلمات التي ينتظمها الكلام ".[١]

معنى ذلك أن المعنى عنده " هو كل ما ينتج عن السياق من فكر وإحساس وصوت وصورة".[٢]

فليس المقصود بالمعنى عنده هو المعنى الجامد الغفل فذلك هو المعنى فقط. فالمعنى عنده هو " الدلالة المباشرة التي يجملها ظاهر اللفظ ".[٣]

وهذا ليس مرادنا ، ولكن مرادنا هو ما ينتج عن ذلك المعنى من إيحاءات وشعور وأحاسيس ، فلذلك كان المعنى الثاني أو " معنى المعنى " هو : الدلالة غير المباشرة التي تستقي من وراء الكلام ، ومن خلال ما يتضمنه من إيحاءات وأبعاد شعرية .[٤]

والدليل على ذلك تحليله لأبيات كثير عزة :

ولَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كُلَّ حَاجةٍ ... ومَسَّح بالأركان مَنْ هو ماسحُ
وشُدَّت على دُهْمِ المهَارَى رِحَالُنا ... ولم يَنْظُر الغادي الَّذِي هو رائحُ
أخذْنا بأطراف الأحاديث بَيْنَنا ... وسَالَتْ بأعناق المطيِّ الأباطحُ

وقبل أن نذكر تحليل عبد القاهر لهذه الأبيات ، نورد ما قاله ابن قتيبة في ذلك ، حيث يقول : " هذه الألفاظ كما ترى، أحسن شىء مخارج ومطالع ومقاطع، وإن نظرت (إلى) ما تحتها من المعنى وجدته: ولما قطعنا أيّام منّى، واستلمنا الأركان، وعالينا إبلنا الأنضاء ، ومضى الناس لا ينتظر الغادى الرائح، ابتدأنا فى الحديث، وسارت المطىّ فى الأبطح ".[٥]

---

(١) اللفظ والمعنى د محمد عابد الجابري ص٤٢ مجلة فصول م٦ / الجزء الأول / سنة ١٩٨٥
(٢) النقد التحليلي ص١٥٧
(٣) مفهوم الجمال عند عبد القاهر الجرجاني ص٦١
(٤) السابق ص٦١
(٥) الشعر والشعراء ص٩

نلاحظ من تحليل ابن قتيبة السابق الآتي :

أولاً : فصل بين اللفظ والمعنى .

ثانياً: أنه يقصد بالمعنى هنا (المعنى الخام) أو الفكرة أو الحكمة .

ثالثاً : ابن قتيبة يؤمن بالفكرة في الشعر والحكم والأمثال ، وهو يدري أن مثل هذه الأشعار لاقيمة لها .

" وعلى هذا فابن قتيبة لا يعد الشعر ذا معنى إلا إذا اشتمل على حكمة أو مثل أو فكرة فلسفية أو معنى أخلاقي أما ما عدا هذا من مجرد التصوير لحالة نفسية أو التعبير عن موقف إنساني فلا يعد عنده معنى ، لقد أطال البحث في هذه الأبيات فلم يجد فيها حكمة أو مثلاً أو فكرة أخلاقية فاتهمها من أجل ذلك بالقصور ".[1]

ثم نعود بعد ذلك إلى تحليل عبد القاهر لهذه الأبيات التي جاء بها لمناقشة الشعر والفضل والمزية في الصورة كلها لا في اللفظ ، ورد مقال من قال : أن الشعر من أجل اللفظ ونعى على ابن قتيبة عندما فضل الألفاظ وأنكر المعاني ، فيقول :" " ولمَّا قضينا من مِنى كلَّ حاجة " فعبّر عن قضاء المناسك بأجمعها والخروج من فُروضِها وسُنَنِها، من طريقٍ أمكنه أن يُقصِّر معه اللفظ، وهو طريقة العموم، ثم نبّه بقوله: " ومسّح بالأركان من هو ماسحُ " على طواف الوداع الذي هو آخر الأمر، ودليل المسيرِ الذي هو مقصوده من الشعر، ثم قال: " أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا " فوصلَ بذكر مسح الأركان، ما وليه من زَمِّ الركاب وركوب الرُّكبان، ثم دلّ بلفظة الأطراف على الصّفة التي يختصّ بها الرِّفاق في السَّفر،من التصرف في فنون القولِ وشجون الحديث، أو ما هو عادة المتظرِّفين، من الإشارة والتلويح والرَّمْز والإيماء، وأنبأ بذلك عن طِيب النفوس، وقُوَّة النشاط، وفَضْلِ الاغتباط، كما تُوجبُه ألفة الأصحاب وأُنسةُ الأحباب، وكما يليق بحال من وُفِّقَ لقضاء العبادة الشريفة ورجا حُسن الإياب، وتنسَّمَ روائح الأحبّة والأوطان، واستماع التهاني والتَّحايا من الخُلاَّن والإخوان، ثم زانَ ذلك كلَّه باستعارة لطيفةٍ طَبَّق فيها مَفْصِلِ التشبيه، وأفاد كثيراً من الفوائد بلُطْف الوَحْي والتنبيه، فصرحّ أوّلاً بما أومأ إليه في الأخذ بأطراف الأحاديث، من أنهم تَنَازعوا أحاديثهم على ظهور الرَّواحل، وفي حال التوجُّه إلى المنازل، وأخبر بعدُ بسرعة السير، ووَطَاءة الظَّهر، إذ جَعَل سلاسة سَيْرها بهم كالماء تسيل به

[1] النقد التحليل ص١٥٧

الأباطح، وكان في ذلك ما يؤكّد ما قبْله، لأن الظُّهور إذا كانت وَطِيئةً وكان سيرها السَّيْرَ السهلَ السريع، زاد ذلك في نشاط الرُّكبان، ومع ازدياد النشاط يزداد الحديث طِيباً، ثم قال: بأعناق المطيّ، ولم يقل بالمطيّ، لأن السرعة والبُطءَ يظهران غالباًفي أعناقها، ويَبين أمرهما من هَواديها وصدورِها، وسائرُ أجزائها تستند إليها في الحركة، وتتبعها في الثِّقَل والخفَّة، ويُعبِّر عن المَرَح والنشاط، إذا كانا في أنفسها، بأفاعيلَ لها خاصّة في العنق والرأس، وتَدُلّ عليهما بشمائل مخصوصةٍ في المقاديم،فقل الآن: هل بقيتْ عليك حسنة تُحِيل فيها على لفظة من ألفاظها حتى إنّ فَضْلَ تلك الحسنة يبقى لتلك اللفظة لو ذُكِرتْ على الانفراد، وأزيلت عن موقعها من نظم الشاعر ونسجه وتأليفه وترصيفه".[١]

هنا نجد مفهوماً كاملاً لمعنى المعنى عند عبد القاهر ، فليس المعنى في نظره هو المحصول الفكري ، وإنما المعنى عنده هو كل ما تولد من إرتباط الكلام بعضه ببعض وكل ما نشأ عن النظم والصياغة من خصائص ومزايا .

ونجد أيضاً في تحليله أنه اهتم وركز على الإستعارة ، وحاول أن يوضح مالها من تأثير في الصورة الأدبية كلها .

" وواضح من منهج عبد القاهر في تحليل الأبيات أنه يرد هذه الخصائص وتلك المزايا حتى ولو كانت حالات نفسية أو شعورية إلى مدى ما استطاعه الأثر الفني من الإنتفاع بمختلف القوى التي تسطيع بها الألفاظ مجتمعة أن تبعث هذا الإحساس أو ذاك ومن ثم يستخلص عبد القاهر قضاياه وأحكامه من واقع العلاقات التي أمامه فيقف عند كل جملة ليحدد وما تتسم به من خصائص وما تفيض يه تبعاً لهذه الخصائص من مشاعر وعواطف وماقف نفسية ".[٢]

وفي تلك الأبيات يقول الدكتور عاطف جودة :

" إن بنية الصورة في الأبيات تلفتنا إلى أن في الصورة بعداً آخر هو هذا " الملاء الحركي" وهذا البعد جوهر الإستعارة وخميرة الصورة ، ويطالعنا هذا الملاء المتموج في إنشغال السفر بشد الرحال وتجهيز القوافل وفي السهول ضيقة بالحجج والمآزم متلاقية متقاطعة تغص بالرواحل والركب غادين رائحين وفي حركة الحوار التي تغزل وتنسج من البطاح سيالة باعناق المطايا إرتفاعاً وإنخفاضاً ".[٣]

---

[١] الأسرار ص١١٤ - ١١٦
[٢] النقد التحليل ص١٦٠
[٣] نقلا من " مفهوم الجمال عند عبد القاهر الجرجاني " ص١٣

ويقول العقاد في تعليقه على الأبيات :

" فالقطعة خلو مما تعود النقاد أن يسموه بالمعاني في الشعر ، وكلنا لا نقول مع القائلين إنها حلاوة لفظية ليس إلا ولسنا نحسب الفضل في إستحسانها للحروف والكلمات كما يحسبون فإن الشعر شئ غير الألفاظ والمعاني الذهنية إنه الصور الخيالية وما تنطوي عليه من دواعي الشعر ".(١)

ويقول الدكتور العشماوي في تعليقه على شرح هذه الأبيات :

" فتفسيره الإستعارة " وسالت بأعناق المطي الأباطح " مرتبط بالموقف العام الذي صدرت عنه الأبيات فما كان للإبل أن يكون سيرها السير السهل السريع لولا ما كان يغمر الركبان من شعور السعادة والفرح والغبطة ، بعد أن ادوا الفريضة ورجوا حسن الإياب ، وما كان لهم أن يتجاذبوا أطراف الحديث في نشوة وإنطلاق لولا إنتهاؤهم من اداء الفريضة ، وما إنتهاؤهم من أداة الفريضة إلا إيذان بالعودة إلى الأهل والأوطان والخلان ، وهكذا نحس أن كل جزء في الكلام مكمل للجزء الأخر ومفسر له ، وهكذا لم يفصل عبد القاهر بين الكلي والجزئي ، أو بين الجوهر والعرض ، أو بين اللفظ والمعنى ، كما فعل سابقوه واستطاعت فكرة التوحيد بين عناصر اللغة هذه أن تحقق لمنهج عبد القاهر ودراسة للشعر فائدة كبيرة وأن تخلصه من كثير من الأخطاء التي وقع فيها غيره ".(٢)

(١) فصول من النقد عند العقاد ص٢٥٦ د محمد خليفة التونسي مكتبة الخانجي
(٢) قضايا النقد الأدبي المعاصر ص٢٢٩ د محمد زكي العشماوي ط دار الكتاب

خلاصة البحث والنتائج النهائية

وبعد إستعراض هذه القضية بكل تشعباتها وفروعها ، وما أثير حولها والجدل الحاصل فيها وتفنيد آراء كل فريق ، يمكنني التوصل إلى بعض الحقائق من خلال هذا البحث، والتي يمكن أن ألخصها في الآتي :

- الحياد والموضوعية في شخصية عبد القاهر .
- إتباع أسلوب الإستقصاء والتتبع بالشرح والتحليل والبراهين على صدق كلامه.
- ليس هناك مزية في اللفظة المفردة ولا بلاغة ولا فصاحة .
- أن الكلمة فائدتها بمدلولها في السياق الكلامي .
- اللفظ والمعنى حبتين في عقد واحد .
- الحكم على العمل الأدبي يكون على العمل الكامل ككل ، وليس على كل لفظة فيه على حدة.
- المعنى عنده هو المعنى الثاني ، وليس المعنى الخام – الأول– ، فالمعنى الأول الذي يحرك المشاعر والأحاسيس في النفوس .
- إختلاف المتلقون في إستقبال المعنى الثاني بحسب إختلاف هيئة الإحساس بالمعنى .
- أن عبد القاهر قد سبق عصره وفا أقرانه بهذه النظرية وصدق كلامه ، فإننا نجد الآن من علماء الغرب ما يتفق مع الجرجاني في نظريته .